قضايا

كشفت تقارير صحافية عدّة، أن يحيى السنوار كان يمرّر، عبر وسيط مصري، رسائل مشوّشة إلى الإسرائيليين، منها قصاصة ورقية مرّرها إلى خصمه بنيامين نتنياهو، كتب عليها باللغة العبرية: «خذ مجازفة محسوبة في وقف إطلاق النار»، وكان يكرّر مثل تلك العبارات التي توحي باهتمامه بهدنة طويلة مع إسرائيل، فيما كان يعد لمعركته ضد الاحتلال.

تحليل نفسي سياسي لمآلات حرب غزّة

السنوار ضد نتنياهو

مراد بطل الشيشاني

قائد حركة حماس في غزة يحيى السنوار في افتتاح مسجد في رفح جنوب قطاع غزّة في 24/ 2/ 2017 (فرانس برس)

«عدا أنه قانوني ومناسب، فإن اعتقال ميكليس (منظّر الأناركيين)، عالج إلى حد ما مشكلة شخصية، طالما أقلقت كبير المفتشين السيد هييت..المشكلة المرتبطة بسمعته، وراحته، وحتى قدرته على ممارسة مهامه بكفاءة»... من رواية جوزيف كونراد «العميل السرّي». كان لقائي الوحيد بيحيى السنوار مقتضباً جداً وعابراً، في العام 2017، بعد أشهر من انتخابه رئيساً لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) في قطاع غزّة، وكان حينها يلقي محاضرة، ضمن تجمّعات كان يعقدها مع تجمّعات شبابية. وكنتُ، مثل صحافيين كثيرين، مهتماً بلقاء هذا القيادي الذي أفرج عنه في صفقة الإفراج عن الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط عام 2011 بعد 22 عاماً، قضاها في السجون الإسرائيلية. كان كثيرون في القطاع يتهامسون باسم أبو إبراهيم السنوار «الذي قتل بسلاحه الشخصي أربعة عملاء دفعة واحدة»، وعن شدّته وحزمه. في نهاية محاضرته، وبالأسلوب المعروف بين أوساط الصحافيين باللقاء المفاجئ، أو الـ Door Stepping، حاولتُ إجراء لقاء سريع معه، لكنه اعتذر بأدب جم، وبعيداً عن أطراف الحديث السريع بين أوساط حراسته، والشبان من الحضور الذين تجمّعوا حوله بعد انتهاء محاضرته، فإن ما تحدث به السنوار في المحاضرة كان لافتاً. قال للحضور يومها إن «غزّة هي مركز العالم»، وإن ما «يحدُث في غزّة، يؤثر في العالم كله»... تصريحات حسبناها، حينها، مجرّد خطابات تسعد المتلقين، لا بل كانت مصدر تندّر آنذاك بين أوساط بعض الزملاء الصحافيين، خصوصاً أنها جاءت والرئيس الأميركي، دونالد ترامب، يمهد لنقل سفارة بلاده إلى القدس المحتلة، وقد فعل بعدها بأشهر، والعالم مشغولٌ بمعارك الموصل، والحالة التي أحدثها تنظيم ما يعرف بـ «الدولة الإسلامية»، فلم يتوقّع أحدٌ أن غزّة المحاصرة في 350 كيلومتراً مربعاً تؤثر في العالم.

2017 نقطة تحوّل

يبدو أن العام 2017 كان فارقاً لحركة حماس، التي غيّرت فيها ميثاقها، وللسنوار، الذي، كما كشفت تقارير صحافية عدّة، أنه كان يمرّر، عبر وسيط مصري، رسائل مشوّشة إلى الإسرائيليين، منها قصاصة مرّرها إلى خصيمه بنيامين نتنياهو، كتب عليها باللغة العبرية: «خذ مجازفة محسوبة في وقف إطلاق النار»، وكان يكرّر مثل تلك العبارات التي توحي باهتمامه بهدنة طويلة مع إسرائيل. وفي النتيجة، كانت إسرائيل قد بدأت تخفّض وجودها العسكري والأمني مع القطاع، وتركّز على المسح التكنولوجي، وكاميرات المراقبة، كما كان الوضع الدولي يوحي بتراجع القضية الفلسطينية عموماً. يقدّم تقييم مجلة الإيكونوميست بُعيد انتخاب السنوار، في العام 2017 نفسه، إشاراتٍ مهمة إلى السياقات عما ستؤول إليه الأوضاع، فتقول: «إنه يعدّ من صقور «حماس» لكنه براغماتي جداً»، وبشكل مفارق تكتب المجلة: «همّش السنوار قيادات حماس في الخارج... وأسكت الصقور منهم في غزّة». وتضيف: «أمضت حماس سنواتٍ في حفر شبكة الأنفاق عبر الحدود، ليتسلّل منها المقاتلون، ويبثّوا العنف في البلدات الإسرائيلية المجاورة، لكن في عام 2016، وقفت تتفرّج على الجيش الإسرائيلي وهو يفجّرها بالتكنولوجيا الحديثة التي تتعرّف إلى أماكنها. محمد الضيف قيادي (كتائب عز الدين) القسّام، كان يريد استخدام تلك الأنفاق، لكن السنوار تجاوزه». ولكن يبدو أن السنوار كان يتحرّك وفق تصوّر بني من مراقبة سلوك الأمن الإسرائيلي، طوال عقدين من السجن، وهي الذهنية نفسها التي تشكّلت لدى أجيال من مقاتلي كتائب الشهيد عز الدين القسام، الذراع العسكرية لحركة حماس، وهم يعيشون في أكبر سجن مفتوح في العالم عقدين وأكثر، ثم إن هجمات 7 أكتوبر (2023)، وما تمخض عنها من حرب دموية في القطاع، أعادت إنتاج نبوءة السنوار أو استراتيجيته، بمركزية غزّة تلك، فاليوم هناك حروب بالنيابة بسببها، تنخرط فيها إيران، ولبنان، والعراق، واليمن، وباكستان، والولايات المتحدة، وبريطانيا، بأشكال مختلفة، وتجارة البحر الأحمر متأثرة، ومحكمة العدل الدولية تعود إلى الواجهة بسبب غزّة، ووسائل إعلام تضع كل الأولوية التحريرية لتغطية حرب غزّة، وشوارع العالم تكتظ بالمتظاهرين أسبوعياً بسبب غزّة ومن أجلها في أحيانٍ كثيرة، ومسارات السلام والتطبيع بين إسرائيل ودول عربية، يُعاد رسمُها، بعد أن كانت مثل مركبةٍ في طريق سريع من دون كوابح.

سيكولوجيا

يدفع ذلك كله إلى التفكّر بشخصية يحيى السنوار وتأثيرها في مجريات أوضاع حرب غزّة، ولن تكتمل الصورة إلا إذا ما قورنت بضده على الجانب الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، المؤثر من الجانب الآخر على أوضاع الحرب. تعتبر إسرائيل السنوار المسؤول الأول عن هجمات 7 أكتوبر، لا بل وضعت جائزة على رأسه، وبين صرخات التوعّد الإسرائيلية بقتله، واستهدافه، فرض الاتحاد الأوروبي عقوباتٍ على أرصدته أيضاً. وفي المقابل، فإن نتنياهو الذي كان يترنح، ويعود إلى النهوض، تحت ضربات تُهم الفساد، وعدم القبول الإقليمي والدولي له أحياناً، ما زال ممسكاً بتحالفه مع التيار اليميني في إسرائيل مشكّلاً واحدة من أكثر الحكومات تطرّفاً، ويمينية، في تاريخ إسرائيل، وما زال يعارض المؤسّسة الأمنية والعسكرية حيناً في تقييمها، ويعارض الإدارة الأميركية الداعم الدولي الأكبر لدولته حيناً آخر، وفهمه حرب غزّة وتصوّره يطيلان أمد الحرب، ولا يقدّم حلولاً لما بعد الحرب، لا بل هو أمر يرفض حتى نقاشه.

بين النبوءات الصهيونية وطين خانيونس

نتنياهو هو أول رئيس وزراء إسرائيلي ولد بعد «النكبة»، 21 أكتوبر/ تشرين الأول عام 1949 بين تل أبيب ويافا، واسمه هو الاسم المؤسرل، بعد أن اختاره أبوه بنتسيون أو بنصهيون (بلفظة أسهل للسان الضاد) بدلاً من عائلة ميليكوفسكي، بعد أن انتقل إلى فلسطين إثر وعد بلفور بسنوات، ليخرُج الاسم من سياقه الأوروبي الشرقي الممتد بين ليتوانيا وبولندا، مثل عائلات يهودية كثيرة استوطنت فلسطين، فأصبح اسم العائلة «نتنياهو»، وهو اسم كان الجد يستخدمه لتوقيع مقالاته، وتعني «هبة الرب». كان ذاك الجد حاخاماً، ولطالما تحدّثت العائلة بمديح عن مواقفه اليمينية في مؤتمرات صهيونية، ويقول كثيرون إنها لم تحدُث أساساً. وأما الأب فقد كان محاضراً جامعياً، ورافق مؤسّس ما توصف بالحركة الإصلاحية الصهيونية، اليميني زئيف جابوتنسكي، فكان من منظّري اليمين الصهيوني الديني - السياسي، وله نظرية سترسخ في سياسات ابنه نتنياهو، وتجلّت في حرب غزّة أخيراً. صبغ هذا التدين العميق المسيّس رغبة العائلة دوماً في النزوع نحو اليمين أكثر، لكن الجدّ والوالد كانا «أكثر إيديولوجية وأقلّ براغماتية»، فنحّى ذلك عائلة «نتنياهو» عن سجل العائلات التاريخية المؤسّسة لإسرائيل، مثل هرتسوغ ووايزمان، وفقاً لما يقوله أنشيل فايفر، أحد الصحافيين الذين أرّخوا لسيرة بنيامين نتنياهو.

> عبر شعبيته، واقترابه من الناس، وحديثه العامي معهم، أوجد يحيى السنوار صورة إعلامية لنفسه

> الدين والتديّن مركزيان لدى السنوار، ويبدو أنّ هذا عامل أساسي في تكوين شخصيته

وبنيامين هذا، وخلافا للأب والجد، برز براغماتيا أكثر، من دون أن لا ينسى استخدام الإيديولوجيا لمنافعه، آملاً أن تلك الثنائية، مع إرثه اليميني، وأسبقياته (أول رئيس للوزراء ولد في إسرائيل، وأصغرهم حينها، وأطولهم حكماً، ومن هزم قيادة تاريخية مثل شمعون بيريس في الانتخابات عام 1996، حين جاء على رأس الحكومة في تصويتٍ مباشر وبنسبة أقل من 1%)، وعلمانيته، ستعيد سطر اسم عائلته في مصافّ عائلات النخبة الإسرائيلية، لكن هذا لم يحدُث، وبات أكثر بعداً عن ذلك بعد حرب غزّة الحالية، خصوصا وأنه طالما اعتبر نفسه «حامي إسرائيل»، وكل مشروعه السياسي يتمحور حول الأمن.

أما يحيى السنوار فقد ولد في خانيونس، ومثل نتنياهو في الشهر العاشر، لكن بعد 13 عاما وثمانية أيام، لعائلة مهجّرة من المجدل (مثل عائلات مهجّرة كثيرة عام 1948 إلى قطاع غزّة حيث أصبح المجادلة تعريفا اجتماعيا في القطاع، مثلهم مثل أبناء المخيّمات، وأبناء غزّة... إلخ). فإن كان نتنياهو باحثاً عن النخبوية في الوسط الصهيوني، فإنها فرضت على ابن مخيّم اللاجئين، السنوار، لنشأته في خانيونس، التي يشار إليها بين الأوساط الشعبية، كمنتج للنخبة الفلسطينية: عائلة ياسر عرفات عاشت فيها، وزاول عبد العزيز الرنتيسي الطبّ فيها، ومنها انحدر محمد دحلان، ومحمد الضيف، وآخرون، فالمدينة كما المنوفية في مصر التي خرج منها معظم رؤساء الدولة المصرية الحديثة، أو مدرسة إيتون الخاصة بين أوساط حزب المحافظين في بريطانيا، ولو في المخيال الشعبي الغزّي على الأقل أحياناً، وعلى سبيل التندّر المحبّب أحياناً أخرى. فالسنوار، وفق منطق المخيال الشعبي هذا، كان نخبوياً جاهزاً، رغم أن نشأته ابناً لعائلة لاجئة، عانت من شظف العيش، كما صوّرها في الرواية التي كتبها في أثناء سجنه لاحقاً، «الشوك والقرنفل» وتبدأ بصورة مأساوية عن دلف الماء إلى مساكن اللاجئين الفلسطينيين في الشتاء، وعن وجبة الطعام التي تقدّمها وكالة الغوث، و«صرر الوكالة التي تأتيهم مرّتين في السنة»، وصعوبة الحياة عموماً، وفي وجود الاحتلال الذي يزيد من مرارة العيش.

الواقع العملي

عملياً، شهوة نتنياهو ليكون صانعا للتاريخ أبقته مشدودا إلى ثنائية «البراغماتية والإيديولوجيا»، فقد عاش طفولته في الولايات المتحدة، وعاد وخدم في العسكرية، وشارك في حروب إسرائيلية منها، معركة الكرامة 1968 والاستنزاف حتى عام 1972، لكنه لم يبن تاريخا عسكرياً كحالة أرئيل شارون، أو موشيه دايان مثلاً، ولم ينجح في دخول المعترك البحثي مع أبيه، الذي وزّث نقمته على السياسيين لابنه، لأنه اعتبر اليساريين وقفوا عائقاً أمام تعيينه في الجامعة العبرية، حين عملا وأشرفا على معهد يوناتان لأبحاث الإرهاب، والكثير من الخبرة العملية في شركات التقنية، والعلاقات العامة، حتى دخوله المعترك السياسي من بوابة التكنوقراط (السلك الدبلوماسي في وزارة الخارجية)، ليتحول من بداية التسعينيات إلى ممارسة السياسة زعيماً حزبياً، ورئيس للوزراء (1996 – 1999) ومن ثم (2009 – 2021)، وعودته بعد انقطاع قصير، لكنه، ورغم تأييد قاعدته اليمينية، ما زال مبكّراً الحكمُ إذا ما كان سيضع مكانه، إسرائيليا، ضمن قيادات سياسية مثل إسحاق رابين وإسحاق شامير وغيرهما، ولا ننسى أن مناصري رابين اعتبروا نتنياهو محرّضا على اغتياله عام 1995 في أول عملية اغتيال لسياسي في المجتمع الإسرائيلي منذ النكبة. كتب الباحث وليد عبد الحي في تحليله لشخصية نتنياهو، في إطار علم النفس السياسي، «تشرّب بنيامين من والده الشعور بأنه دخيل على المؤسسة السياسية، وغلب عليه الشعور في البداية أنه معزول بالرغم من تميّزه (الذي يعتقده هو)، لذلك رأى جميع زملائه السياسيين منافسين له، بل انتقم ممن استشعر معارضتهم له».

وعلى ذلك، اتّسمت تحالفات نتنياهو دوما بالتذبذب وعدم الاستقرار، والأهم إصراره على تطبيق تصوراته السياسية، العسكرية، بشكل فردي انفرادي، منخرطاً في أزماتٍ مع المؤسسة العسكرية والأمنية، وحتى مع حلفائه بدرجة كبيرة، كما تكشّفت بشكل كبير في حالة حرب غزّة والمباحثات المتكرّرة التي كانت تجري للتوصل إلى وقف إطلاق النار، أو هدن مختلفة. أما السنوار، فتجربته السياسية، على الجانب الآخر، وفي قطاع غزّة، بدأت في الأوساط الجامعية، مطلع الثمانينيات، قائداً للحركة الطلابية الإسلامية، في جامعة غزّة الإسلامية (وكان ندّه في الحركة الطلابية، والذي سيبقى ندّا لحركته سنوات، محمّد دحلان)، وسيبقى هذا النشاط مصدر حساسية عالية لدى السنوار لاحقا، كما يقول للكاتب أحد الذين رافقوه في السجن، ولا يريد الكشف عن هويته، لأسباب أمنية، فالمجمع الإسلامي، الذي أسّس لحماس لاحقاً، كان يُتّهم، من فصائل فلسطينية، بأنه «طابور خامس»، و«صنيعة إسرائيلية»، وبما أن «حماس» ليست عضوا في منظمة التحرير الفلسطينية، فإن السنوار كان يتحسّس من أي تشكيك في وطنية حركته، ولذا فإن الإشارات للوطنية الإسلامية في روايته تتكرّر، مثل إشارته إلى بدايات انتشار نشاط الإسلاميين في غزّة «طاب للشبّان الربط المحبّب بين الدين والوطنية... فالساحة الفلسطينية فيها إما الشيخ أو المتدين الذي لا علاقة له بالواقع والهم الوطني، وإما الوطني أو الفدائي الذي لا علاقة له بالدين أو التديّن».

قُرب السنوار من زعيم حماس ومؤسّسها، الشيخ أحمد ياسين، وتأسيسه جهاز المجد الأمني، الذي بدأ مثل حركات إسلامية كثيرة، في نزوعها العسكري، في التركيز على الجانب الاجتماعي، أو يوصف بالحسبة، ليتطوّر، أو يطوّره السنوار، إلى جهاز يختصّ بملاحقة المتعاونين مع إسرائيل، ومن ثم إلى جهاز استخباراتي، وقد تطوّرت هذه الخبرة العملية لدى السنوار في قراءاته المتنوعة في الأمن، خصوصا الإسرائيلي «حتى فهم تفاصيل تفاصيله»، وفقاً لرفيق سجنه.

ويبدو التناقض، النخبوي/ الشعبي، والسياسي/ العسكري، حاضرا حين المقارنة بين السنوار ونتنياهو، وهذا شكّل عاملاً إضافياً، في عدم إمكانية التقارب بين الطرفين، فرغم التأثير الكبير لهجوم 7 أكتوبر غير المسبوق، إلا أن تناقض الشخصيتين أو افتراقهما شكّل عاملاً مهماً في تشدّد المواقف واستمرار الأزمة في حالة التصعيد العالية، بشكل غير مسبوق. ورغم ذلك الافتراق، يلتقي السنوار ونتنياهو، في مهاراتهما في التعامل مع الإعلام، حيث يعدّ الأخير، لدى متّتبعين له، أميركياً أكثر من كونه إسرائيليا، حيث استطاع عبر امتلاك أدوات الرسالة الإعلامية، البروز سياسياً ماهراً، وعملياً (وهذا يختلف عن الرمز السياسي)، وهو ما يفسّر أيضاً منحه البعد التجاري في بعض تجمعاته السياسية، ويظهر مهاراتٍ فائقة في التواصل الإعلامي. في المقابل، وعبر شعبيته، واقترابه من الناس، وحديثه العامي معهم، أوجد يحيى السنوار صورة إعلامية لنفسه، ولعلها تكثفت في عام 2021. بعد جولة الصراع بين إسرائيل وقطاع غزّة آنذاك، تجوّل في وسط غزّة، وتحدّى بني غانتس (كان نائب رئيس الوزراء آنذاك) بمنحه مهلة 60 دقيقة لقصفه، متحدّياً بالتجول بين الناس في القطاع، حيث كان غانتس، وبعد إعلان وقف إطلاق النار قال بأنه «لا حصانة للسنوار والضيف إذا ظهرا علانية». كان ظهوراً إعلامياً، زاد من شعبيّة السنوار بين أوساط مؤيديه، لا بل وكسب تقدير خصومه السياسيين في الداخل الفلسطيني.

تمنح هذه القدرات الإعلامية، لدى الطرفين، مشروعية عالية لهما، كل بين أوساط مؤيديه، وتدفع أيضاً إلى التمسّك بمواقفهما بشكل أقوى، والتعامل مع النقد الموجّه إلى كل منهما من كل طرف، حيث يصرّ نتنياهو على تجاوز الحاجز النفسي الإسرائيلي التاريخي في عدم تحمّل عبء الخسائر، حتى بين العسكريين. والسنوار، يقول أحد الذين رافقوه في السجن، إن بعضهم قد ينتقده بسبب الخسائر البشرية في غزّة بسبب الهجمات الوحشية الإسرائيلية، لكنه «لا يتوقع أن ذلك يغير موقفه».

(إعلامي أردني في لندن)

نتنياهو والتيار الديني

أدرك رئيس حكومة الاحتلال بنيامين نتنياهو مبكّراً أهمية التيار الديني، في زعامته حزب الليكود عبر محاولات توسيع قاعدته الانتخابية والشعبية، واستذكار حاجته إلى اليمين المتديّن - القومي في إسرائيل، فيخرج دوماً، قبعة الإيديولوجي، من دون أن ننسى أنه لا يقلع زيّ البراغماتية الدائم، ولكن تأثيرات صورة الأب وفلاديمير جابوتنسكي دفعته إلى أن يفسّر الحقوق الفلسطينية والمقاومة بالإرهاب الدولي، الذي يجب التعامل معه بمنطق القوة.

النص الكامل
على الموقع الإلكتروني